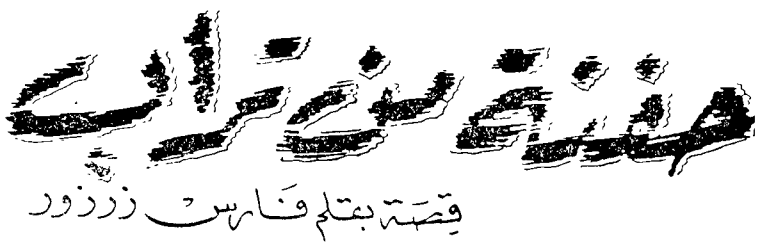

عندما كان (محمد الجاجة) يغوص في مقعده وسط الطائرة الكبيرة ، راودته لأول مرة في حياته فكرة الوطن . ما معنى هذه الكلمة ؟ ولماذا ينشدها الناس ؟ بل لماذا يموتون في سبيل هذا الشيء الذي يسمونه الوطن ؟ . وتساءل لأول مرة في حياته ، اين هو وطنه ؟ . هل هناك في فلسطين حيث تتثاءب امه العجوز ، وتفني حياتها في الصلاة وخدمة الناس والثرثرة عن هذه وتلك ، ام هنا حيث استطاع ان يجمع الآلاف من الليرات الانكليزية أم حصان ! وحيث تمكن من ان يملك بيتاً ويفتح متجراً ويصاحب مئات الفتيات الرشيقات الجميلات ؟ اية صلة تربطه بتلك الارض التي يسمونها مسقط رأسه ؟ . ليس له هناك شيء من الاشياء . لا من ارض ولا من بيت ولا حتى من مسمار جحا. بل ربما لم يكن قد ولد حتى في ارض من الاراضي . وقد تذكر فعلا ان امه كانت تقول انه سقط منها بسهولة فائقة ، عندما كان يعذبها احد الجنود الانكليز اثناء بحثهم عن ابيه الذي كانوا يسمونه الشقي المارق الخارج على القانون . وانه لا يدري بالضبط هل سقط في معسكر انكليزي ، ام في احد قوارب الصيد في الطريق الى احد المنافي . وهو عندما يتذكر طفولته وصباه لا يشعر باية ذكرى حسنة نحو احد من الناس او نحو قطعة من الارض او شجرة او ساقية او نحو اي شيء من الاشياء . حتى ان اباه الذي يحتفظ له بصورة جد باهتة لم تكن ذكراه بالنسبة اليه غالية جداً إن لم تكن لها اية قيمة على الاطلاق .

وهو على كل حال لم يكن يعرف عن ابيه سوى انه احد الفلاحين او الاجراء الذين لا يملكون غير كد اليمين وعرق الجبين . وانه كان يكلفه ثمن الحذاء الفلاحي او طاقية القطن ما يزيد عن وزنها دموعاً ، وعندما مات ابوه لم يبك عليه كثيراً بل ربما لم يشعر بشيء من الحزن إن كان قد شعر بشيء بأية حال من الاحوال . فلقد مات ابوه والسلام . وكل ما كان قد جمعه خلال حياته القصيرة اخذه معه . واذا اراد ان يتحرى الصدق والحقيقة في هذه القضية ، فيجب ان يقول إنه مات مديناً .. مديناً بطفله وزوجته وثمن الكفن .

اما امه — وهذا هو السبب الوحيد الذي جعله يحرك دماغه بعض الوقت — فيمكن نقلها كأي متاع آخر غير ملتصق بالأرض ، اما مسبحتها فتعلقها برقبتها وتريحها من عناء كبير ، وأرض الله واسعة يمكنها ان تصلي في كل مكان.

واذا كان مفهوم الوطن ، هو المكان الذي يعيش فيه الانسان عزيزاً حراً وسيد نفسه ، فهنا في (البرازيل) خير مكان . هنا ينادونه الناس (سنيور جاجة) ويحس في قرارة نفسه انه (سنيور) حقاً وفعلا وانه ليس (جاجة) فقط بل ديك رومي ضخم يشق بمنقاره الحديد . وله هنا بيت كبير بل «فيلا» فخمة وبستان كجنان السماوات ومتجر ضخم يلعب في خزائنه الذهب كما يلعب الفار في حواكير قريته . وهو اذا ما دعي يوماً ما للدفاع عن شيء من الاشياء ، فلن يكون دفاعه عن غير بيته ومتجره ومكان سعادته .

ولقد مضى عليه هنا ما ينوف عن العشر السنين تعلم خلالها اللغة (السبنيولية) قراءة وكتابة وكلاماً في حين انه خرج من قريته امياً اعجم كحمار .

وهو اذا ما اراد ان يفتش هناك عن الأهل والأصحاب والأحباب ، فلن يجد شيئاً من كل ذلك ، حتى ان مرتع الصبا الذي يتغنى به الشعراء مفقود ايضاً . لقد كان هناك صبياً حقاً ، غير انه لم يكن ليرتع كما يرتع الراتعون . فقد بدأ يعمل اجيراً منذ ان بدأ يحمل نفسه ، فلا من اصحاب ولا من احباب حتى ولا من كان يحس بوجوده على الاطلاق .

واذا كانت امه هناك قد استسلمت الى حياة الركود والطمأنينة والسلام في ظلال خدمة الناس والعيش على فتات موائدهم حتى مات فيها كل شعور بالكرامة الانسانية وآمنت بما انزل الله اذا كانت امه هناك قد اعتادت على كل ذلك ، فمن السهولة بمكان ان يعاد اليها رشدها ، وتكفر شيئاً فشيئاً بحياة العبيد ، وان تؤمن بانها انسانة لها حق العيش والحياة .

وعاد السنيور الى رشده دفعة واحدة ونظر في ساعته وتنهد كمقامر خاسر . لقد اضاع نصف ساعة في جنون فارغ . سيقفز الى هناك بالطائرة ، فيضع على قبر ابيه جرزة آس ويجلب امه معه وينتهي كل شيء .

وراحت الطائرة الكبيرة تحلق بين الغيوم تملأ هديرها الفضاء وربما الارض ايضاً ، ثم تهوي دفعة واحدة لتستقر على طبقة جديدة من الهواء كأنما هي سفينة تتلاطمها امواج غير منظورة . وعلى المقاعد المترادفة المصفوفة يستلقي اناس قبعاتهم فوق وجوههم وأيديهم على صدورهم ينامون او يتناومون . وبين لحظة واخرى تنزلق في الوسط مضيفة رشيقة تبدو من الخلف كبنت مدرسة ومن الأمام كجد ضئيل عجوز طلي وجهه للتسلية . وخلال ذلك اخذ السنيور محمد يطل على الارض او البحر ويفكر . ست وثلاثون ساعة ذهاب واخرى اياب ويومان احتياط ، لن يتأخر على اية حال . ان المتجر سيفوته كثير من الارباح . لعن الله اليهود وهذه القضية كم انهم مزعجون ! كان لولاهم خالي البال ، لا من تفكير باشياء عميقة ولا من سفر ولا ما يحزنون . ألم يجدوا في غير فلسطين ارضاً يسكنونها ؟ لقد قرأ اخيراً في بعض الجرائد الاميركية : « ان اليهود لا يكفيهم النصف بل انهم بحاجة لأن يقتطعوا اقساماً اخرى ، وان العرب ايضاً لم يرضوا بالقسمة فراحوا يحتجون ويصرخون » يا لله ! ما هذه المشاكل المعقدة التي تتعب الفكر وتقلق البال ؟ ولم يشأ ان يزعج نفسه اكثر من ذلك فاستلقى في مقعده واستسلم لرقاد عميق.

★

القرية هي نفسها : بضعة اكواخ طينية متفرقة متطامنة ، وفي وسطها بيت ابيض يعلو نسبياً عما حوله . التراب نفسه ، والقش نفسه ، والساكنون انفسهم . رجال ونساء واطفال وكلاب كلهم يسيرون بكلل او يستلقون تحت اشعة الشمس. لا شيء جديد . عشر سنوات مضت في الخارج . يبدو انهم هنا لا يحسون بمرور الزمن. سنة، سنتان، قرن، كل شيء هادىء الشمس، تشرق وتغرب، والمطر يهطل والكلاب تعوي واطفال يولدون ويعمون ويموتون.. خرج الانكليز وجاء اليهود والخراب هو الخراب ...

أين تسكن ام محمد الجاجة ؟ . لماذا لا يتكلم هؤلاء الناس ؟ . اية نكبة سحقتهم.. لماذا ينظرون اليّ هكذا ؟ علهم يظنونني يهودياً ! يجب ان اظهر هويتي. انهم لا يجيبون بل لا يكادون يرونني ! .. ونزع قبعته .

اين تسكن ام محمد الجاجة ؟ ونظر اليه الصبي ببلاهة ولم يجب .. يبدو انه لا يتكلم العربية بصورة سليمة ! وراجع سؤاله بينه وبين نفسه .. أين .. تـ .. صحيح انني لا اخطىء ... يجب ان اسأل رجلاً . ها هو . انه يحمل بندقية وقد طرز صدره بالرصاص .

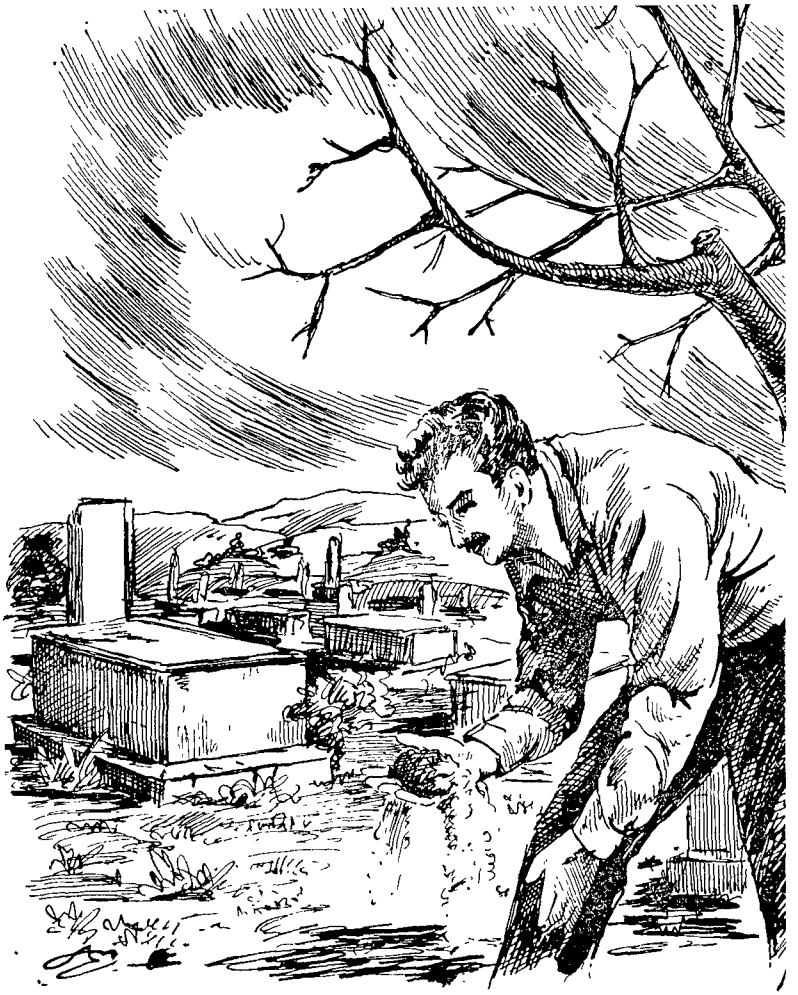

– مرحبا يا شب .
– مرحبا .
– أنا محمد الجاجة .
– اهلا .
– الا تعرفني ؟
– بلا صغرة ..
– ان امي تسكن هنا .. ام محمد .. زوجة ابي محمد ، و ..
– ماذا تريد ؟
– جئت من البرازيل لآخذها و ...

وجلس الشاب على الأرض ووضع بندقيته في حجره وراح ينظف فوهتها بخرقة بالية :

– انني لست من هذه القرية .. هل تريد احداً ؟

وتجمهر حول السنيور بعض الاطفال العراة وراحوا يرفعون رؤوسهم الى الاعلى ويغمضون اجفانهم المتورمة وتجرأ احدهم فتلمس بنطال الرجل .

– كش يا اولاد العمى ..

ولم يجد السنيور محمد بدأ من ان يتخذ طريقه الى البيت الكبير . ودخل المضافة. هنا يصطف رجال مسلحون حتى ذقونهم. انهم يبدون ثقالاً كالمدرعات. يبدو ان القرية في حالة حرب .

– السلام عليكم .

كانوا يتناقشون: انا وسعيد وصالح على رأس التل وحسين واليافي في الوادي هنا كمين حسن . سنحيط القرية من الجانبين آ .. نعم .. احسن طريقة ..

وتقدم من السنيور كهل تلتمع في عينيه شرارات حمراء .

– اهلا وسهلا .

– هل استطيع ان اجد والدتي انا ابن ام محمد ...
– ها .. حضرتك محمد .. تفضل .

وتلاشى الرجل روحاً وجسدا كأنما سحقته قاطرة مسرعة .

لقد ماتت امه منذ ثلاثة اشهر .

★

ليس لي هنا احد . أنا غريب .. غريب جداً حتى على نفسي . يجب ان ارجع .. ارجع في الحال . ان القرية في حالة حرب وهي مهددة في كل لحظة بهجوم اليهود . ما هذه المفاجآت .. امي ميتة والقرية مهددة ؟ وبدأ يحرك دماغه من جديد كما لم يحركه في يوم من الإيام . سيحاول اليهود التعدي على القرية ، فأذا عجز رجالها عن صد العدوان .. في هذه الحالة سوف لن يخسر شيئاً ماديا، فأذا فكر بنفسه فهو برازيلي ليست له اية صلة بهذه القرية وسيجد طريقة .. اية طريقة للخلاص . اما امه التي جاء لينقلها الى هناك فهي الآن جثة باردة تحت التراب ..

امه جثة ميتة لا يمكن نقلها. سيتركها هنا.. حسناً .. وينصرف وحده .. وحده .. لا شيء .. من هو .. وتحرك شيء في اعماقه .. شيء ثقيل جداً كالحوت النائم في قيعان البحار . وبدأ هذا الشيء يزحف ويتململ ويحرك زعانفه. لقد افاق .. أحس بالجوع والظمأ . فقد نام طويلاً اثر سكرة من سكرات المال والعمل. امه في التراب، تسكن في الأرض وفوقها احجار وطن وشاهدة بيضاء . وربما ابوه ايضاً. ابوه الذي لم يفكر فيه بمثل امه، ربما انه ينام الى جانبها ايضاً . هنا في هذه الأرض يسكن ابوه وامه . وشاء ان ينفض عن رأسه هذه الافكار المقلقة ، ان يضرب الحوت على ام رأسه . ماذا يفعل ؟ هل يترك كل شيء .. وينسى كل شيء ؟ إلا نفسه .. نفسه . نفسه . ولكن هذه النفس ألا يجب ان تمتلىء بشيء ؟.. ان تختزن ذكرى من الذكريات، عاطفة من العواطف .. أشياء تسليه ، تسعده او تعذبه . اشياء تشعره بانه انسان . وأحس لأول مرة في حياته بان نفسه عارية .. عارية على الاطلاق ، فارغة قاحلة جوفاء لا يملأها شيء . المال، الذهب، الحياة المترفة ،ماذا فعلت هذه الاشياء؟ لقد اسكرت الحوت، جعلته ينام نومة طويلة ترى هل هذا هو الوطن ؟ هذا الحب هل هو حب الوطن حب الأرض وحب التراب ؟

وإذا داس الأعداء قبريهما بأحذيتهم ودكوا معالمها، ماذا يحدث ؟ . هل يعتبر ان الأمر قد انتهى وأن لا شيء يصله بأي كائن من الكائنات ؟ . وبعد عشر سنين او عشرين سنة او اقل او اكثر ، اذا اراد ان يفكر في لحظة من لحظات فراغه بأمه وابيه ، بقبريهما ماذا يحدث ؟ . ماذا يكون لو انه مد يده الى قرارة نفسه فلم يجد شيئاً يقبض عليه ؟ . وأحس بدوار هائل كأنما سقط من الطائرة .. شيء مخيف .. الذكريات .. إنها اثمن مما كان يعتقد، اثمن من الذهب. وحاول ان يذكر أعز شيء لديه، متجرأ ، « فيلا » فتاة رائعة، ذهباً انكليزيا، مئات الزبائن، حفلات رقص، غناء .. موسيقى .. وأغمض عينيه . انه لا يستطيع ان يمسك شيئاً . ليس هناك غير الفراغ البشع الرهيب .

ونهض المغترب وراح يجوس خلال المقابر . وبمساعدة بعض المجاهدين العرب عثر على قبرين متجاورين: الأب والأم . وجلس الرجل بين ابويه وطوق رأسه بساعديه وراح يتحسس مشاعره بهدوء .

– اخي .. هل ننتظر هجوم اليهود ؟
– ربما .. غير ان هنا رجالاً يدافعون عن كل ذرة من هذه القرية .
– هل استطيع ان اعثر على بندقية. سأنام هنا هذه الليلة لأدافع عن اهلي.
– بكل سرور ايها الأخ . خذ بندقيتي وخراطيشي . ان عندي مسدسين

وقنابل يدوية . ونحن بحاجة الى اعوان على كل حال . ابق حيث انت واطلق النار عندما تشاهد احداً . سنكون نحن في الجهة الاخرى على احتراس .

وخيم الظلام ، وطرزت صفحة السماء نجوم ناعمة بيضاء ، ونقت الضفادع في مستنقع قريب . وحركت الانسام رؤوس الاشجار. وراحت من جوانب القرية تسمع اصوات رجال وقعقعة سلاح. ودبيب اقدام رائحة غادية . لا بأس، ان المكان ليس موحشاً الى حد بعيد .

وراح الرجل بين ابويه، بين قبريهما، يستنبت مشاعره ويدغدغها وينميها . ان ذلك شيء جديد بالنسبة اليه . هذا بيت ابوي"، هنا يسكنان ، هنا وطنها في هذه الارض . ومد يده الى القبر : تراب ... تراب خشن . وغرس اصابعه في القبر فلذعته شوكة حادة . واستخرج قبضة من التراب وراح يعصرها عصراً شديداً حتى دميت انامله . هل لهذا التراب رائحة . وغرس انفه في قبضة التراب . ليست له رائحة معينة غير ان فيه حياة ... حياة اناس ماتوا .. أعزاء عليه . حياة غريبة . لا تشبه اي حياة من الحيوات . غير انها حياة .. حياة كحياة انسان . لقد بدأ يشعر بها ويحسها بل يعيشها باعمق جوارحه وكل كيانه .

يجب ان يستعمل السلاح . وارجع مغلاق البندقية ، وراح يتفحصه . انها ممتلئة ؛ انها تبتسم ابتسامة صفراء . يكفي ان يضغط الزناد لينطلق لينطلق الرصاص الاصفر . انه لم يحارب في حياته ، غير انه الآن مكلف بالذود عن شيء . سيدافع عن هذين القبرين .. عن الارض التي تضمهما . عن الارض التي عاش فيها ابواه وسيعيش هو نفسه عليها .

ورفع عينيه ونظر حوله . هل اصابه دوار ؟ ان القبور تتحرك . يبدو انها تتقدم او تتأخر ! وهذه الشواهد، انها تبرز شيئاً فشيئاً . كأنما هي جنود ينبتون من الخنادق استعدادا للهجوم . وأصاخ السمع .. ما هذا الدوي الهائل ؟ .

لا بأس سيضغط الزناد عند اول حركة . وبعدها فليحدث ما يحدث . لن يدع احداً يقترب على اية حال من الاحوال . ان عنده جناداً مملوءاً وانه يعرف كيف يضغط الزناد .

ها هي الضفادع تثرثر بصخب . اية سعادة تمرح بينها ؟ هل تحس هذه الحيوانات بعاطفة من العواطف ، عاطفة الوطن مثلا ؟ . ماذا يكون شعورها لو اخرجت من مستنقعها وألقيت في صحراء من الصحارى او قفر من القفار ؟. وهذه الاشجار الباسقة انها تهز رؤوسها بنشوة ، فهي تنشب اظفارها في الارض .. في ارضها ولن تقوى حتى فؤوس الحطابين على تحطيمها .. لن يؤثر فيها الرصاص او شظايا القنابل . لقد تذكر انه يوماً كسر غصناً من اغصان الكرمة فراحت تبكي بدموع غزيرة كدمعة الانسان .

والتفت فجأة الى الخلف. من هذا الذي ينظر اليه بهاتين العينين الحادتين البراقتين دون ارتعاشة جفن ؟ وحبس الرجل انفاسه بل توقف نبضه وأحس شيئاً فشيئاً ان شعر رأسه ينتصب . ونسي ان يضغط الزناد ، بل نسي نفسه .

— ... مم .. من هذا ...

وارتفعت العينان البراقتان وسمع تصفيق جناحين كقهقهة ساخرة شامتة .

يا لله .. كاد يموت . لو كان هذا عدواً لخسر كل شيء . يجب ان يتعلم رباطة الجأش .. يجب ان يكون شجاعاً كهؤلاء الناس الذين مرّ بهم .. لقد بدوا له لأول وهلة انهم فلاحون عاديون لا يعرفون غير زراعة الأرض والنوم في الشمس .

غير انه عندما تفحص عيونهم لمس اشياء مخيفة . هل هي قوة العزيمة . أم الايمان بشيء اخطر من الموت ؟ ان في عيونهم نيراناً اشد مضاء من اسلحتهم . فهم يحملون ادوات الموت كما يحملون فؤوس القطع ومحاريث الفلاحة . لا بد ان لكل منهم شيئاً يدافع عنه ، ارضاً بيتاً شجرة قبراً ... او ذكرى من الذكريات .

وعاد من جديد الى قبريه ، وتحسسهما بيديه ، وعانقهما . هنا يسكن ابواه . هذا ما تبقى لهما بعد طول الكدح والسنين . غير انه شيء .. شيء ثمين على كل حال .

ربما انهما الآن يحدثانه وينظران اليه، دون ان يفهم او يعي ما يقولان. وتذكر انه سمع يوماً ان الاموات يتكلمون وينظرون كما لا ينظر الحي ويتكلم .

وانقضت ساعة تلتها ساعات طويلة .

النجوم في السماء تتغامز بنشوة . والقبور تتحرك ببطء ثم تقف . والشواهد تنبت شيئاً فشيئاً . والضفادع يزداد ضجيجها والاشجار تخشخش اوراقها . ومن بعيد همهمة رجال غامضة . وكل شيء هادىء .

★

وفي مساء اليوم التالي تلقى متجر المغترب محمد الجاحة في البرازيل هذه البرقية :

« بيعوا كل شيء وارسلوا المال الى العنوان التالي : تل الزيوان يافا، فلسطين . »

دمشق **فارس زرزور**

الى اساتذة الانشاء

في اقطار العروبة جميعاً

•

لقد اجمع المربون على ان سلسلة « **كيف اكتب** » المصورة هي أفضل ما وضع لتعليم الانشاء في المدارس الابتدائية . فراجعوها قبل ان تقرروا كتب الانشاء للعام القادم تخدموا طلابكم وتوفروا على انفسكم كثيراً من عناء هذه المادة الاساسية من مواد التعليم .

وتقع السلسلة في اربعة اجزاء ملونة وهي من تأليف جماعة من الاساتذة الاختصاصيين .

دار العلم للملايين